الأحاديث الواردة في خيرية آخر الأمة المحمدية

دراسة موضوعية في السنة النبوية

د. فاطمة الزهراء سواق
(جامعة الجزائر1\ كلية العلوم الإسلامية- الجزائر)

وردت في مصادر السنة النبوية جملة من الأحاديث التي تمدح آخر الأمة المحمدية وتثني عليها وتوازي فترتها من حيث الفضل بفترة الصدر الأول أو ترفعها عليها، وهو خلاف ما تواردت عليه الأدلة القرءانية والنبوية في خيرية أول هذه الأمة، وعليه تسعى هذه الدراسة إلى فهم هذه الأحاديث مجتمعة في إطار منهجية الشرح الموضوعي للحديث النبوي مع السعي إلى التوفيق بين معانيها وبين ما ثبت من أدلة في فضل أول الأمة.

حدود وإشكالية الدراسة: تعنى هذه الدراسة بجمع ودراسة الأحاديث المتعلقة ببيان خيرية آخر هذه الأمة دراسة موضوعية، فلا تمثل الأحاديث التي أخبر فيها الرسول الكريم باستمرار الخير في أمته وعدم انقطاع أهل الحق فيها جزءا منها، ولا الأحاديث المتعلقة بفضل أول الأمة إلا في إطار دفع ما ظاهره التعارض بينها وبين الأحاديث المتصلة بموضوع هذه الدراسة، وهو أمر لازم في طريق الفهم السليم للسنة النبوية، ومن خلاله تكون الإجابة على إشكالية هذا الموضوع القائمة على ثلاثة استفسارات: ما معنى خيرية آخر هذه الأمة على أولها؟ وما أسباب هذه الخيرية التي خصت بها فأكسبتها هذه المنزلة؟، وما آثار فقه هذه الأحاديث على واقع المسلمين اليوم؟.

هيكلة البحث

المقدمة

المبحث الأول: معاني وصف النبي ﷺ لآخر أمته بالخيرية

المطلب الأول: المساواة بأول الأمة

المطلب الثاني: الأفضلية على أول الأمة

المطلب الثالث: التردد في الأفضلية بين أول الأمة وآخرها

المبحث الثاني: أسباب ومظاهر خيرية آخر الأمة وتجلياتها في واقع المسلمين اليوم.

المطلب الأول: أسباب خيرية آخر الأمة

المطلب الثاني: مظاهر خيرية آخر الأمة

المطلب الثالث: أحاديث خيرية آخر الأمة وواقع المسلمين اليوم

الخاتمة.

المبحث الأول
معاني وصف النبي ﷺ لآخر أمته بالخيرية

حفظت مصادر السنة النبوية جملة من الأحاديث التي تمدح آخر الأمة الإسلامية وتثني على أهله خيرا، وقد تنوعت معاني وصف النبي ﷺ لهؤلاء الآخِرين بالخيرية، حيث ورد في هذه الأحاديث ما يوازي فترتهم من حيث الفضل بفترة الصدر الأول، ومنها ما يرفعها عليها، ومنها ما فيه تردد أي الفترتين خير أولها أم آخرها:

المطلب الأول: المساواة بأول الأمة

وصف النبي ﷺ أول الأمة وآخرها بوصف مشترك هو الغربة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى

للغرباء»[1]، فمقتضى كلامه ﷺ في هذا الحديث المتواتر[2] تفضيل الأولين والآخرين معا على الوسط لهذه الغربة[3]، ومعنى الغربة في الحديث أن الإسلام كان في قلة في بداية ظهوره وسيكون كذلك في آخر الزمان[4] مع كون الملتزمين به أخيارا في العهدين معا كما تدل عليه عبارة «فطوبى للغرباء» التي فيها دعاء لهم جميعا بطيب العيش والفرح والتنعيم والتكريم وإصابة الخير ودوامه[5]، يقول ابن عبد البر في بيان علة تفضيل قرن النبي وآخر هذه الأمة: ((إن قرنه إنما فضل لأنهم كانوا غرباء في إيمانهم

(1) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، رقم 145، ت: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض، 1419هـ - 1998م، ص 83 / محمد بن يزيد ابن ماجة القزويني، سنن ابن ماجة، كتاب الفتن، باب بدأ الإسلام غريبا، رقم 3986، ت: فريق بيت الأفكار الدولية، بيت الأفكار الدولية، عمان والرياض، ص 428 / أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، رقم 9054، ت: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1417هـ - 1997م، ج 15 ص 22.

(2) روي هذا الحديث عن جمع من الصحابة غير أبي هريرة حتى عده أهل العلم من المتواتر، انظر: عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ت: طارق بن عوض الله بن محمد، ط 1، دار العاصمة، الرياض، 1424هـ - 2003م، ج 2 ص 173/ محمد بن جعفر الكتاني، نظم المتناثر من الحديث المتواتر، دار الكتب السلفية، مصر، ص48 - 49 وغيرها.

(3) أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، ت: سليم بن عيد الهلالي، ط 1، دار ابن عفان، بيروت، 1412هـ - 1992م، ج 1 ص 314.

(4) القاضي عياض بن موسى اليحصبي، إكمال المعلم بفوائد مسلم، ت: يحيى إسماعيل، ط 1، دار الوفاء، المنصورة، 1419هـ - 1998م، ج 1 ص 456 - 457.

(5) يحيى بن شرف النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيت الأفكار الدولية، عمان والرياض، ص 185 -186.

لكثرة الكفار وصبرهم على آذاهم وتمسكهم بدينهم، وإن آخر هذه الأمة إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على طاعة ربهم في حين ظهور الشر والفسق والهرج والمعاصي والكبائر كانوا عند ذلك غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الزمن كما زكت أعمال أوائلهم))[1].

إلا أن ما يعترض توجيه معنى هذا الحديث بالمساواة بين أول الأمة وآخرها لاشتراكهما في وصف الغربة هو ما تواتر عن النبي ﷺ من إخباره بخيرية أهل قرنه على من يأتي بعدهم في قوله: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينَه ويمينُه شهادَته**»[2]، وذلك لأن فضيلة الصحبة ورؤية النبي ﷺ ميزة لا يعدلها عمل، يضاف إليهم دفاعهم عنه ﷺ وهجرتهم معه ونصرتهم لدينه وحفظهم لشريعته وتبليغها لمن بعدهم، فهي أيضا أعمال جليلة لا يتصور أن يوازيهم فيها أحد من الآخرين، فما من عمل منها إلا وللذي سبق بها مثل أجر من عمل به من بعدهم، فظهر فضلهم وخيريتهم المطلقة على غيرهم[3].

وأجيب عن ذلك بأن فضيلة الصحبة ميزة خاصة لا توجد لمن أتى بعدهم، ولكن ليس في النصوص الشرعية ما يدل على أن أي صحبة لا يوازيها شيء من الأعمال مهما كان لمن كان بعدهم، بل هي ميزة من سائر الميزات، والأدلة التي فضلت الصحابة على

(1) أبو عمر يوسف بن عبد البر الأندلسي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ت: سعيد أحمد أعراب، 1409هـ - 1989م، ج 20 ص 251- 252.

(2) أخرجه الشيخان من رواية عبد الله بن مسعود وعمران بن حصين رضي الله عنهما، ونص على تواتره: ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ - 1995م، ج 1 ص 165/ نظم المتناثر من الحديث المتواتر، ص 199.

(3) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، بيت الأفكار الدولية، عمان والرياض، 2006م، ج 2 ص 1652.

غيرهم ربطت تلك الأفضلية بصحبة خاصة اجتمع فيها: الإيمان وقت الشدة والغربة، الهجرة، الجهاد في سبيل الله، التضحية بالنفس والمال، ونشر الدين، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾[الأنفال 74 – 75]، وقال أيضا: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[التوبة 88].

فالذي يترتب على هذه الآيات ونظيراتها في القرآن الكريم أن الأفضلية التي فاز بها الصحابة رضوان الله عليهم كانت لأسباب، ومتى وجدت هذه الأسباب في غيرهم، فإنهم يساووا الصحابة في الفضل في أي زمان، وهذا القول مبني على أن تفضيل أهل القرن الأول على من بعدهم لا يلزم منه تفضيل كل فرد منهم على كل فرد ممن بعدهم، حيث جمع قرن النبي ﷺ مع السابقين من المهاجرين والأنصار جماعة من المنافقين الذين أضمروا الكفر وأظهروا الإيمان، وجماعة من أهل الكبائر الذين أقام الرسول على بعضهم الحدود، وجماعة لم يروا النبي ﷺ إلا ساعة أو صحبوه فترة من الزمن ولم يعرف عنهم جهاد في سبيل الله، ولم يبلغوا شيئا من سنته أو لم يسلموا إلا متأخرا، بل إن النبي ﷺ قال مخاطبا من هو في قرنه ممن تأخر إسلامه كخالد بن الوليد رضي الله عنه: «لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نَصِيفه»(1)، وعليه يمكن أن يكون في آخر الزمان من يكون أفضل من بعض آحاد

(1) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذا خليلا، رقم 3673، ت: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، عمان والرياض، 1419هـ – 1998م، ص 701 / صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة، رقم 2541.

الصحابة باستثناء أهل بدر والحديبية الذين نُص على فضلهم على سائر الأمة[1] في أدلة كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة:

في القرآن الكريم

وصف القرآن الكريم أهل بدر بالإيمان والجهاد في سبيل الله في غير ما آية من القرآن الكريم، منها:

1) قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران 13].

2) قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال 62 ـ 63].

وأثنى على أهل بيعة الرضوان الذين شهدوا الحديبية في عدد من الآيات الكريمات، منها:

1) قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح 4 – 5].

2) قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح 18].

(1) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ج 20 ص 250 – 252 / سليمان بن محمد بن عبد الله النجران، المفاضلة في العبادات قواعد وتطبيقات، ط 1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1425ه – 2004م، ص 704 – 705.

في السنة النبوية: وردت في السنة النبوية أحاديث أكثر إفصاحا في الثناء على هاتين الفئتين من الصحابة، منها:

1) ما ورد في قصة الصحابي حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي بعث كتابا إلى المشركين مع امرأة يعلمهم فيه ببعض أمر رسول الله ﷺ، حيث قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وفي رواية أخرى: «لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة أو قد غفرت لكم»(1).

2) حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خير أهل الأرض»، وكنا ألفا وأربعمائة، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة(2).

3) حديث جابر أيضا من أن عبدا لحاطب جاء رسول الله ﷺ يشكو حاطبا فقال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها، فإنه شهد بدرا والحديبية»(3).

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، رقم 3007، ص 575 – 576 وفي كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرا، رقم 3983، ص 756 وفي مواضع أخرى / وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر وقصة حاطب بن أبي بلتعة، رقم 2494، ص 1011 – 1012.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم 4154، ص791 / وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، رقم 1856 (71)، ص 775 – 776.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر وقصة حاطب بن أبي بلتعة، رقم 2495، ص 1012.

إن استثناء السابقين الأولين الذين شهدوا بدرا والحديبية من هذه الموازنة بين أول الأمة وآخرها يعطي معنى المساواة في الفضل وجه قوة، ولهذا قال ابن حجر: ((ومحصل النزاع يتمخض فيمن لم يحصل له إلا مجرد المشاهدة كما تقدم، فإن جمع بين مختلف الأحاديث المذكورة كان متجها))(1)، فالبتوجيه السابق إذن يمكن اعتبار هذه المساوة حقيقية، ولكن ليس بين مطلق أهل الزمنين كما تبين، وإنما بين آخر هذه الأمة وبين من تحققت فيهم مجرد الصحبة أو الصحبة العامة.

(1) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 2 ص 1652.

المطلب الثاني: الأفضلية على أول الأمة

فضَّل النبي ﷺ في بعض أحاديثه الشريفة آخر هذه الأمة على أولها، وقد ورد هذا التفضيل في كلامه ﷺ إما مطلقا، وإما مقيدا بالأجر:

1) **التفضيل المطلق**: وقد ورد فيه الأحاديث التالية:

الحديث الأول: رواه عن النبي ﷺ الصحابي أبو جمعة الأنصاري رضي الله عنه، وفيه أن النبي ﷺ قال لأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه لما سأله: يا رسول الله هل أحد خيرٌ منا، أسلمنا معك وجاهدنا معك، قال: «نعم، قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني»[(1)].

الحديث الثاني: هو قول النبي ﷺ: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني»، وفي رواية: «وطوبى لمن آمن بي ولم يرني ثلاثا»، وفي رواية: «طوبى لمن آمن بي ولم يرني سبع مرار»[(2)].

---

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل، رقم 16976و16977، ط 1، ج 28 ص 182 – 184/ أبو عبد الله الحاكم، المستدرك على الصحيحين وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، دار المعرفة، بيروت، ج 4 ص 85 / عبد الله بن عبد الرحمان الدارمي، مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي، كتاب الرقاق، باب في فضل آخر هذه الأمة، رقم 2786، ت: حسين سليم أسد الداراني، ط 1، دار المغني، الرياض، 1421هـ – 2000م، ج 4 ص 1803 – 1804/ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، رقم 3537 و 3538 و 3539، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة ، ج 4 ص 22 –23... وغيرهم.

حكمه: صححه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (ج 2 ص 1652)، وصححه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

(2) هذا الحديث رواه عدد من الصحابة، منهم: أنس بن مالك، أبو سعيد الخدري، أبو هريرة، أبو أمامة، أبو عبد الرحمان الجهني:

وقد دلَّ ظاهرا على تفضيل آخر الأمة على أولها في الحديث الأول جوابُ النبي ﷺ بالإثبات على سؤال الصحابي: [يا رسول الله هل أحد خيرٌ منا؟]، وخير اسم تفضيل على غير قياس من الخير الذي يطلق على كل ما كان حسنا في ذاته أو لما يحققه

=أخرج رواية أنس: أحمد في مسنده، رقم 12578، ج 20 ص 37/ وأبو يعلى الموصلي، مسند أبي يعلى الموصلي، رقم 3391، ت: حسين سليم أسد ، ط2 ، دار الثقافة العربية، دمشق، 1412هـ ـ 1992م ، ج 6 ص 119 أخرج رواية أبي سعيد الخدري: أحمد في مسنده ، رقم 11673، ج 18 ص 211 / أبو يعلى في مسنده، رقم 1374، ج 2 ص 520 / وابن حبان البستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب فضل الأمة، رقم 7230، ت : شعيب الأرنؤوط، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1414ه - 1992م، ج 16 ص 213 أخرج رواية أبي هريرة : ابن حبان في صحيحه، الكتاب والباب نفسه، رقم 7232، ج 16 ص 215 أخرج رواية أبي أمامة: أحمد في مسنده، رقم 22138 و 22139، ج 36 ص 453 - 454 ... / ابن حبان في صحيحه، الكتاب والباب نفسه، رقم 7233، ج 16 ص 216 أخرج رواية أبي عبد الرحمان الجهني: أحمد في مسنده، رقم 17388، ج 28 ص 611 / الطبراني في المعجم الكبير، ج 22 ص 742.

حكمه : حسّن ابن حجر رواية أبي أمامة وأبي عبد الرحمان الجهني ، وقوى الحديث عموما بمجموع شواهده، حيث قال بعد الإشارة إلى بعض روايات هذا الحديث: ((وأسانيدها يقوي بعضها بعضا))، انظر: ابن حجر العسقلاني، الأمالي المطلقة، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، ط1، المكتب الإسلامي، بيروت، 1416هـ - 1995م، ص 44- 46/ وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لمسند أحمد (ج18 ص 212): ((لا يخلو إسناد منها من مقال غير حديث أبي عبد الرحمان الجهني فإسناده حسن على قول من أثبت صحبته))، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (حديث رقم 1241)، وجوّد إسناد رواية أبي عبد الرحمان الجهني، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف، الرياض، 1415هـ - 1995م ، ج 3 ص244 - 247.

من نفع وفائدة للغير[1]، ودل على ذلك التفضيل ظاهرا في الحديث الثاني تعظيمُ النبي ﷺ لإيمان الآخِرين من أمته كما يفهم من تكراره الدعاء لهم بطوبى مرتين أو ثلاثا أو سبعا كما ورد في مختلف روايات الحديث[2].

ولعل إشكال التعارض بين هذين الحديثين وحديث «خير الناس قرني ...» يظهر في الحديث الأول منهما، لأن الحديث الثاني مع ما فيه من تعظيمٍ لإيمان هؤلاء الآخرين يستفادُ من تكرار الدعاء لهم بطوبى، إلا أن هذا التعظيم لا يدل بالضرورة على الأفضلية.

وبالرجوع للحديث الأول الذي فيه التصريح بالخيرية، فقد ذُكِر في حل هذا التعارض بأنه ليس فيه ما يدل على تفضيل المجموع على المجموع، وعليه يبقى أهل الزمن الأول الذين ثبتت لهم الصحبة أفضل باعتبار مجموع القرن لقوله ﷺ: «خير الناس قرني ...» مع إمكانية أن يكون فيمن بعدهم من هو أفضل من بعضهم، فإن قيل أن ظاهر الحديث يفيد تفضيل المجموع على المجموع تعَذَّر الجمع حينها، ولم يبق من مسلك إلا الترجيح، فَيُرجّح عليه إذن حديث «خير الناس قرني ...» لقرائن متنوعة، فهو متواتر، وثبَت من طرق كثيرة، ورواه صاحبا الصحيحين الذين تلقت الأمة أحاديثهما بالقبول[3].

(1) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط 4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 1425هـ - 2004م، ص 264.

(2) أبو الحسن محمد بن عبد الهادي السِّندي، حاشية مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت: نور الدين طالب، ط 1، دار النوادر، دمشق، 1428هـ - 2008م، ج 7 ص 20.

(3) محمد بن علي بن محمد الشوكاني، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، ت: رائد بن صبري بن أبي علفة، بيت الأفكار الدولية، عمان والرياض، ص 1736.

1) **التفضيل المقيد**: وقد ورد فيه حديث واحد[1].

فعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «... فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيه مثل قبض على الجمر، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله»، قيل: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟، قال: «أجر خمسين منكم»[2]، وفي رواية عتبة بن غزوان رضي الله عنه: «... المتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه له كأجر خمسين منكم»، قالوا: يا نبي الله، أو منهم؟، قال: «لا، بل منكم ثلاث مرات أم أربع»[3]،

(1) رواه عن النبي ﷺ عدد من الصحابة، منهم: عبد الله بن مسعود، أبو ثعلبة الخشني، عتبة بن غزوان وغيرهم.

(2) سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، سنن أبي داود ، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم 4341، ت: بيت الأفكار الدولية، بيت الأفكار الدولية، عمان والرياض، ص 474/ ومحمد بن عيسى بن سورة الترمذي، جامع الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة المائدة، رقم 3058، ت: فريق بيت الأفكار الدولية، بيت الأفكار الدولية، عمان والرياض، ص 487/ سنن ابن ماجة، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، رقم 4014، ص 431 - 432 / وأبو عبد الله الحاكم في مستدركه، كتاب الرقاق، ج 4 ص 322 وغيرهم.

حكم هذه الرواية: قال الترمذي: ((هذا حديث حسن غريب))، وكذلك حسَّنه العلائي في رسالته «تحقيق منيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة»، انظر: خليل بن كيكلدي أبو سعيد العلائي، مجموع رسائل الحافظ العلائي، ت: وائل محمد بكر زهران، ط1، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، 2007م، ص 275، أما الحاكم فقد صحح إسناده، وقال: ((صحيح الإسناد ولم يخرجاه))، ووافقه الذهبي، إلا أن الرواية التي أخرجها الحاكم بغير الزيادة التي هي محل الشاهد في الحديث، لكن هذه الزيادة لها شاهد من رواية ابن مسعود وعتبة بن غزوان.

(3) . المعجم الكبير، ج 17 ص 117.

وفي رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «... للمتمسك فيه أجر خمسين شهيدا»، فقال عمر: يا رسول الله منا أو منهم؟، قال: «منكم»[1].

ذهب شراح هذا الحديث إلى أنه ليس فيه ما يدل على خيرية وأفضلية آخر هذه الأمة على أولها ، واستدلوا لقولهم بما يلي:

1) بأن زيادة الأجر في بعض الأعمال لا يلزم منه ثبوت الأفضلية المطلقة، أو أن غير الصحابة الذين أخبر النبي الكريم بمضاعفة أجورهم قد أصبحوا بهذه المضاعفة في الخيرية مع الصحابة سواء أو أفضل، وذلك لأن الأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى

=حكم هذه الرواية: رواها عن عتبة: إبراهيم بن أبي عبلة، وروايته عنه مرسلة كما قال في التهذيب، فالسند منقطع، إلا أن له شاهد من رواية أبي ثعلبة الخشني وعبد الله بن مسعود، انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ج 1 ص 892 – 893.

(1) أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي البزار، البحر الزخار المعروف بمسند البزار، رقم 1776، ت: محفوظ الرحمان زين الله، ط 1، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، 1409هـ – 1988م ، ج 5 ص 178 / الطبراني، المعجم الكبير، ج 10 ص 225 .

حكم هذه الرواية : قال البزار: ((هذا الحديث لا نعلمه يروى عن عبد الله إلا من هذا الوجه))، أي من طريق سهل بن عامر البجلي عن ابن نمير عن زيد بن وهب عن عبد الله، إلا أن في سند الطبراني: سهل بن عثمان البجلي، قال في المجمع: ((ورجال البزار رجال الصحيح غير سهل بن عامر البجلي وثقه ابن حبان))، انظر: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ت: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ج 7 ص 282، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم 494) بعد أن ذكره من طريق الطبراني: ((وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات رجال مسلم، ثم تبين أن هذا خطأ نشأ من خطأ المعجم، فإن الصواب سهل بن عامر البجلي، وكذلك رواه البزار، وابن عامر هذا ضعيف وإن وثقه ابن حبان))، انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ج 1 ص 893.

ما يماثله في ذلك العمل، وقد فاز الصحابة رضوان الله عليهم بفضيلة مشاهدة النبي ﷺ، وهي ميزة لا يعدلها عمل، بالإضافة إلى الذب عن النبي ﷺ والهجرة ونصرة الدين وحفظ الشرع وتبليغه لمن بعدهم، فهذه لا يعدلهم فيها أحد ممن يجيء بعدهم، لأنه ما من عمل من الأعمال المذكورة إلا وللذي سبق بها مثل أجر من عمل به من بعده، فظهر فضلهم[(1)].

2) وبأن التفضيل في الأجر في الحديث ليس على إطلاقه، بل هو كما يقول العز بن عبد السلام مبني على قاعدتين: **الأولى**: أن الأعمال تشرف بثمراتها، **والثانية**: أن الغريب في آخر الإسلام كالغريب في أوله، وعليه فالإنفاق في أول الإسلام أفضل لأنه أثمر في فتح الإسلام وإعلاء كلمة الله ما لا يثمر غيرها، وكذلك الجهاد بالنفس فيه أفضل لقلة عدد المتقدمين وقلة أنصارهم، أما أفضلية الأجر عند المتأخرين فتحصل لهم في الأعمال التي يشق عليهم فعلها في تلك الأيام التي وسمها الحديث بأيام الصبر لا مطلقا، وما يثمره ذلك الصبر من حفظ للدين وتمسك به رغم مشقة انكار المنكر وإظهار شعائر الإسلام لكثرة المنكر وقلة المعين[(2)].

وبيان هذا الكلام: أن أعمال الآخِرين لا دليل على كونها أفضل على الإطلاق في جميع الأحوال، فالحديث واضح الدلالة على أن تفضيلهم في الأجر على الصحابة رضوان الله عليهم إنما يكون في زمن الفتنة وأيام الصبر، وهو بهذا يكون مخصصا للحديث الآخر الذي يبين فيه النبي ﷺ أن أعمال الصحابة السابقين فاضلة على أعمال غيرهم، وهو قوله ﷺ مخاطبا بعض من تأخر إسلامه من الصحابة: «لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نَصِيفه»[(3)]، وعليه فإن

(1) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 2 ص 1652/ مجموع رسائل الحافظ العلائي، ص 277.

(2) جلال الدين عبد الرحمان السيوطي، مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود، ت: محمد شايب شريف، ط 1، دار ابن حزم، بيروت، 1433ه - 2012م، ج 3 ص 1101.

(3) سبق تخريجه.

أعمال الصحابة السابقين فاضلة مطلقا من غير تقييد بحال معينة، وأعمال من بعدهم مفضولة إلا في أيام الفتنة والصبر، فقد يكون لعمل أحدهم من الأجر ما يوازي أجر خمسين من الصحابة، أو أجر خمسين شهيدا منهم كما في بعض الروايات(1).

هذا وقد اعتبر بعضهم هذا الحديث شارحا ومبينا لحديث أبي جمعة الأنصاري الذي يفيد ظاهره التفضيل المطلق بقرينة إحدى روايته، وفيها: قال أبو جمعة الأنصاري ﵁: كنا مع رسول الله ﷺ ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة، فقلنا: يا رسول الله هل من أحدٍ أعظم منا أجرا، آمنا بك واتبعناك؟، قال: «وما يمنعكم من ذاك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم يأتون من بعدكم يأتيهم كتابٌ بين لوحين فيؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجرا»(2)، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: ((وأما حديث أبي جمعة لم تتفق الرواة على لفظه، فقد رواه بعضهم بلفظ الخيرية ...، ورواه بعضهم بلفظ: قلنا يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجرا؟، الحديث أخرجه الطبراني، وإسناد هذه الرواية أقوى من إسناد الرواية المتقدمة(3)، وهي توافق حديث أبي ثعلبة))(4).

(1) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، ص 1736.

(2) محمد بن إسماعيل البخاري، خلق أفعال العباد، ت: عبد الرحمان عميرة، ط 2، دار عكاظ، الرياض، ص 88 / الطبراني في المعجم الكبير، رقم 3540، ج 4 ص 23.

حكم هذه الرواية: قال الإمام الذهبي: ((هذا حديث صالح الإسناد وغريب))، انظر: أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 1 ص 390، وحسّنها الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة، ص 43، واعتبر إسنادها أقوى من إسناد الرواية الأولى كما في فتح الباري، ج 2 ص 1652.

(3) من كلام محقق مسند الإمام أحمد، ج 28 ص 183.

(4) وذلك أن راويها باللفظ الأول هو أَسِيد بن عبد الرحمان الخثعمي (ثقة من رجال أبي داود)، وباللفظ الثاني: معاوية بن صالح الحضرمي (ثقة من رجال مسلم)، يقول محقق المسند في توجيه

ويُجمع بين الروايتين بأن الرواية الثانية تبين المراد من الخيرية في الرواية الأولى ـ وهو الأفضلية في الأجر- فلا تعارض بينهما[1]، واعتماد هذا التوجيه يضيف لنا قولا ثالثا في فهم حديث أبي جمعة الأنصاري[2]، وهو توجيه لا تطرح معه إشكالية التعارض الظاهر بينه وبين حديث «خير الناس قرني»، فثبوت الأفضلية لهم في الأجر في عمل من الأعمال أيام الصبر لا يجعلهم أفضل من الصحابة مطلقا للأدلة السابقة.

ولكن باستصحاب ما تم الوصول إليه في المطلب الأول من إمكانية أن يكون في الآخرين من يساووا في الفضل من تحققت فيهم في الزمن الأول مجرد الصحبة، فإنه يمكن أيضا أن يكون في الآخرين من يتفوق على هؤلاء الذين تحققت فيهم مجرد الصحبة العامة، وعليه فخيرية الآخرين على بعض الأولين محتملة من حيث هذه الحيثية، وليس من حيث الأدلة المذكورة في هذا المطلب الثاني، والله أعلم.

المطلب الثالث: التردد في الأفضلية بين أول الأمة وآخرها

حملت بعض عبارات النبي ﷺ في حديثه عن أول أمته وآخرها ما يشبه التردد في أيهما أفضل، حيث ورد عنه حديثان في هذا السياق، وهما:

=قول الحافظ ابن حجر: ((لأنها من طريق معاوية بن صالح الحضرمي، وهو ممن عرف بكثرة رواية الحديث أكثر من أسيد بن عبد الرحمان، وهو ثقة احتج به مسلم، ولا يضره أنه من رواية عبد الله بن صالح عنه، لأن روايته هذه لا تعارض الرواية السالفة الذكر، بل توجهها إلى المعنى المراد من الخيرية))، انظر كلامه في هامش مسند الإمام أحمد، ج 28 ص 183.

(1) فتح الباري، ج 2 ص 1652.

(2) أي بالإضافة إلى قولي الجمع والترجيح الذين أشار إليهما الشوكاني في نيل الأوطار كما سبق بيانه في شرح الحديث.

الحديث الأول: عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن مثَلَ أمتي مثَلُ المطر، لا يُدرى أوّلُه خير أو آخرُه**»[1].

(1) الإمام الترمذي في جامعه، كتاب الأدب، باب 81، رقم 2869، ص 459 / والإمام أحمد في مسنده، رقم 12327، ج 19 ص 334، ورقم 12461، ج 19ص 45/ وأبو داود الطيالسي، مسند أبي داود الطيالسي، رقم 2135، ت: محمد بن عبد المحسن التركي، ط 1، 1420هـ – 1999م، دار هجر، القاهرة، ج 3 ص 511 وغيرهم.

حكمه: اختلف النقاد في الحكم على هذا الحديث، حيث أعله الإمام أحمد بالإرسال، انظر: أحمد بن حنبل، كتاب العلل ومعرفة الرجال، ت: وصي الله بن محمد عباس، ط 2، دار الخاني، الرياض، 1422هـ – 2001م، ج3 ص 314، ووافقه على ذلك ابن رجب الحنبلي في شرح علل الترمذي، ت: نور الدين عتر، دار الملاح، القاهرة ، ج 2 ص 501 – 502، أما من قبِله فهم: الإمام الترمذي قال: ((وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه))، والألباني الذي صححه بمتابعاته في السلسلة الصحيحة، ج 5 ص 356، وشعيب الأرنؤوط الذي حسَّن إسناده في تحقيقه لمسند أحمد، ج 19 ص 334.

وعلى اعتبار المضعفين أن الحديث يصح مرسلا ولا يصح موصولا، فإن المرسل ينجبر بغيره، وقد اجتمعت لهذا الحديث طرق عديدة ما بين متابعات وشواهد يصلح كثير منها للاعتبار والانجبار، ولهذا حكم ابن عبد البر وابن حجر العسقلاني والألباني والأرنؤوط أن الحديث يرتقي بمجموع طرقه إلى دائرة القبول صحة أو حسنا، قال ابن عبد البر في التمهيد، ج 20 ص 253: ((روي من حديث أنس وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص من وجوه حسان))، وقال ابن حجر في الفتح، ج2 ص 1652: ((وهو حديث حسن له طرق يرتقي بها إلى الصحة))، وقال الألباني في المرجع السابق: ((وبالجملة في الحديث صحيح بلا ريب بمجموع هذه الطرق))، وعلق على عبارة ابن حجر بقوله: ((بل هو صحيح يقينا كما يتبين من هذا التخريج))، وقال الأرنؤوط في تحقيقه للمسند: ((حديث قوي بطرقه وشواهده)).

هذا الحديث من الأمثال النبوية، وقد شبه فيه النبي ﷺ أمته بالمطر، وظاهره أنه كما لا يعلم أيُّهما أشد نفعا أول المطر أم آخره، فكذلك هذه الأمة في خيرها وفضلها لا يعلم أولها خير أم آخرها.

الحديث الثاني: وهو قول النبي ﷺ: «**ليدركن الدجال قوما مِثلكم أو خيرا- ثلاث مرات -، ولن يخزي الله أمة أنا أولها، وعيسى بن مريم آخرها**»[1]، وفي رواية أخرى: «ليدركن المسيح من هذه الأمة أقواما إنهم لمثلكم أو خير - ثلاث مرات-، ولن يخزي الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها»[2].

---

(1) أبو عبد الله الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب المغازي والسير، ج 3 ص 41.

(2) ابن أبي شيبة، مصنف بن أبي شيبة، كتاب فضل الجهاد، رقم 19690، ت: محمد عوامة، ط 1، دار القبلة، جدة، 1427هـ - 2006م، ج 10 ص 257 - 258 / أبو عبد الله محمد بن علي المعروف بالحكيم الترمذي، نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، الأصل 124، رقم 707 ت: إسماعيل إبراهيم متولى معوض، ط 1، مكتبة الإمام البخاري، القاهرة، 1429هـ - 2008م، ج 1 ص 495.

حكمه: قال الحاكم: ((هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه))، وتعقبه الذهبي بقوله: ((ذا مرسل وهو منكر))، وحسنه ابن حجر في الفتح، وقال الكشميري تعليقا على حكم الذهبي عليه بالنكارة: ((ولم يذكر له وجها وجيها، بل الصحيح أنه إن لم يكن صحيحا فلا ينحط عن درجة الحسن كما صرح به الحافظ ابن حجر في فتح الباري))، انظر: محمد أنور شاه الكشميري، التصريح بما تواتر في نزول المسيح، ت: أبو الفتاح أبو غدة، ط5، دار القلم، بيروت، 1412هـ - 1992م، ص 172.

ولعل حكم الذهبي عليه بالنكارة لاستشكال معناه، كما استشكل غيره حديث: «مثل أمتي مثل المطر» كما سنفصل ذلك في متن البحث، وكيف يوفق بينها وبين الأحاديث التي تعارضها، أما من حيث السند، فإن راوي هذا الحديث عن النبي ﷺ هو عبد الرحمان بن جبير عن نفير، وهو من

ومحل الشاهد في هذا الحديث هو في في قول النبي ﷺ: «**مثلكم أو خيرا**»، وظاهره يفيد ترددا في كلام النبي ﷺ بين المساواة بين أول الأمة وآخرها في الفضل وبين تفضيل آخر الأمة على أولها.

وسواء كان التردد في المفاضلة بين أول الأمة وآخرها كما في الحديث الأول أو التردد بين المساواة بينهما أو مفاضلة آخر الأمة على أولها كما في الحديث الثاني، فإن هناك إشكالية في استيعاب هذين المعنيين لتعارضهما مع الأحاديث التي تفضل أول الأمة على آخرها مطلقا، ولما كان المسلك الصحيح في فهم الأحاديث المتعارضة ظاهرا أو مختلف الحديث هو العمل على التوفيق والجمع بينها قبل النظر في الترجيح الذي لا يُعمد إليه إلا عند العجز عن الجمع لما استقر عند أهل العلم أن إعمال جميع الأدلة الشرعية أولى من إهمال بعضها(1)، لأجل هذا فقد تنوعت أقوال الشراح في التوفيق بين هذه النصوص النبوية:

=التابعين، وعند الحاكم والحكيم الترمذي: عبد الرحمان بن جبير عن أبيه جبير بن نفير، وهو من المخضرمين، فالحديث على كل حال مرسل، والمرسل ضعيف عند المحدثين، وإن لم تكن فيه علة غير الإرسال، ولكنه يصلح للانجبار، ويشهد لهذا المرسل حديث أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (رقم 706، ج 1 ص 494) عن عبد الرحمان بن سمرة، وفيه: «...فإنما مثل مثل أمتي مثل حديقة، قام عليها صاحبها، فاجتث رواكبها، وهيأ مساكنها، وحلق سعفها، فأطعمت عاما فوجا، ثم عاما فوجا، ثم عاما فوجا، فلعل آخرها طعما يكون أجودها قنوانا، وأطولها شمراخا، والذي بعثني بالحق ليجدن ابن مريم في أمتي خلفا من حواريه»، ويشهد لمحل الشاهد منه قوله ﷺ في حديث أنس السابق: لا يدرى أوله خير أم آخره، وهو حديث قوي بمتابعاته وشواهده كما تبين.

(1) راجع عند الأصوليين: أبو محمد علي بن حزم الظاهري، الإحكام في أصول الأحكام، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ج2 ص 21 / الاعتصام للشاطبي، ج 1 ص 315 / محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ت: أبو حفص سامي

القول الأول: أن عبارة التردد في قوله ﷺ [لا يدرى أوله خير أو آخره] هي نظير قولهم: ما أدري أوجه هذا الثوب أحسن أم مؤخره، ووجهه أفضل بلا ريب، وعليه فمراد النبي ﷺ من استعمال هذه العبارة بيان شدة قربهم في الفضل والخيرية من الصحابة، لا حقيقة المساواة بينهما فضلا عن الأفضلية، إذ لا شك أن الصحابة هم خير وأفضل ممن جاء بعدهم(1).

القول الثاني: أن النبي ﷺ لم يرد الشك في عبارته [لا يدرى أوله خير أم آخره]، وإنما أراد أن هذه الأمة في كثرة خيرها تشابه أمرها وكاد لا يتميز أولها عن آخرها في الفضل تماما كالمطر كله خير، أوله ينبت وآخره يربي، فكذلك هذه الأمة: الأولون أقاموا الدين والآخرون مهدوا قواعده(2)، وإن كان الفضل للمتقدم، ولهذا يقول الإمام ابن كثير في توجيه هذا المثل النبوي: ((... وكذلك الزرع الذي يحتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني، ولكن العمدة الكبرى على الأول، واحتياج الزرع إليه آكد، فإنه لولاه لما نبت في الأرض ولا تعلق أساسه فيها))(3).

=بن العربي الأثري، ط1، دار الفضيلة، الرياض، 1421ه - 2000م، ج 2 ص 1126 - 1127 وعند المحدثين: أبو عمرو ابن الصلاح، معرفة أنواع علوم الحديث المعروف بمقدمة ابن الصلاح، ت: نور الدين عتر، دار الفكر، بيروت، 1406هـ - 1986م، ص 284 -286 / جلال الدين عبد الرحمان السيوطي، تدريب الراوي بشرح تقريب النواوي، ط 1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1424هـ - 2003م، ص 282 - 283.

(1) عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مختلف الحديث والرد على من يريب في الأخبار المدعى عليها التناقض، ت: سليم بن عيد الهلالي، ط 2، 1430هـ - 2009م، دار ابن القيم، الرياض ودار ابن عفان، القاهرة، ص 239 -240.

(2) حاشية السندي على مسند الإمام أحمد، ج 7 ص 203.

(3) إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، ت: مصطفى السيد محمد وآخرون، ط 1، مؤسسة قرطبة، القاهرة، 1421هـ - 2000م، ج 13 ص 354.

القول الثالث: أن آخر هذه الأمة الذين تحتمل فيه هذه المساواة أو المفاضلة هم أهل زمان عيسى عليه السلام، فإنهم يعودون في الصلاح والخير إلى حال الأولين[1]، ويؤيده الحديث الثاني الذي جاء صريحا في ذكرهم.

القول الرابع: أن المراد من العبارة من يشتبه عليه الحال في ذلك من أهل الزمان الذين يدركون عيسى عليه السلام، فيرون في تلك الفترة من الخير والبركة وانتصار الإسلام ودحض الكفر، فيشتبه على من يشاهد هذا التمكين للمسلمين أي الزمانين خير، لكن هذا الاشتباه مندفع بقول النبي عليه السلام: «خير الناس قرني»[2].

القول الخامس: أن الحديثين متفقان في المعنى، ويُبيِّن المراد منهما سبب ورود الحديث الثاني، وهو ما أصاب الصحابة رضوان الله عليهم من جزعٍ وحزنٍ وخوفٍ على من قُتِل يوم مؤتة[3]، وفي شاهد لهذا الحديث من رواية عبد الرحمان بن سمرة رضي الله عنه ما يبين شدة ما ألَّم بالصحابة من حزن لما بلغهم ما حلَّ بجيش المسلمين في مؤتة، وفيه: فبكى أصحاب رسول الله ﷺ، وهم حوله: فقال ﷺ: «وما يبكيكم؟»، قالوا: وما لنا لا نبكي، وقد قتل أخيارنا وأشرافنا وأهل الفضل منا؟!، فقال: «لا تبكوا فإنما مثل أمتي مثل حديقة قام عليها صاحبها ... الحديث»[4].

وعليه فإن ما يفهم من الحديث بعد الوقوف على سبب وروده والإطلاع على ظروف وملابسات قوله هو أن النبي ﷺ له قصد بكلامه التسلية عن الصحابة

(1) حاشية السندي على مسند الإمام أحمد، ج 7 ص 203.

(2) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 2 ص 1652.

(3) ورد في رواية الحاكم والحكيم الترمذي: عن عبد الرحمان بن جبير بن نفير عن أبيه قال: لما اشتد جزع أصحاب رسول الله على من قتل يوم مؤتة قال رسول الله ﷺ: الحديث، وفي مصنف ابن أبي شيبة: لما اشتد حزن أصحاب رسول الله ﷺ على من أصيب منهم مع زيد يوم مؤتة قال رسول الله ﷺ: الحديث، وفي رواية أخرى عنده: لما اشتد خوف ... .

(4) انظر تتمته وتخريجه في الصفحة السابقة.

رضوان الله عليهم، وليس حقيقة ما ذكر فيه من خبر، يقول أبو الفضل الغماري أن هذا الحديث: ((خرج مخرج التسرية والتسلية للصحابة عمن فقدوه يوم مؤتة، وليس ظاهره مرادا، ذلك أن النبي ﷺ لما رأى جزعهم وحزنهم أراد أن يسري عنهم، فأخبرهم أن الخير لا ينقطع عن هذه الأمة المحمدية على مدى الزمان، حتى أن الدجال إذا خرج أدرك قوما هم في الخير والفضل مثل الصحابة، إن لم يكونوا خيرا منهم ...، والمراد بالمثلية في الحديث أن هؤلاء القوم الذين يدركهم الدجال يماثلون الصحابة في شدة التمسك بالحق وانفرادهم بالدفاع عنه في وقت يعم فيه الفساد، ويجمع اليهود، وفي مقدمتهم الدجال على محاربة المسلمين واستئصال شأفتهم كما كان الحال في صدر الإسلام، وليس المراد أنهم مثل الصحابة في جميع مالهم من المزايا والفضائل))(1)، والمعنى أنهم وإن شاركوا الصحابة في هذه الخصلة، فإن الصحابة خصوا بمزايا وفضائل لا تتحقق لمن بعدهم أبدا، ولهذا تنتفي عن غيرهم مماثلتهم لهم، وإذا انتفت المثلية فالخيرية منفية من باب أوكد وأولى.

حاصل هذه الأقوال الخمسة، وإن كانت متباينة في وجوه التوفيق والجمع بين هذه الأحاديث المتعارضة ظاهرا، فإنها تتفق على نفي مساواة ومفاضلة الآخرين للأولين نفيا جازما، وإن كانت تتفق أيضا على تلك المقاربة الشديدة بينهما، بحيث لا يكاد يتميز أيهما خير من الآخر، وإن كان الأمر محسوما في واقع الأمر وحقيقته لصالح الصحابة رضوان الله عليهم، ولعل نفي المفاضلة هي بين الآخرين وبين الصحابة الذين استثناهم ابن عبد البر من الموازنة أصلا، أما من تحققت فيهم مجرد الصحبة العامة فقد يكون في هؤلاء الآخرين من يبلغهم ويفوتهم في الفضل جمعًا بين مختلف أحاديث هذا الباب كما ذكر ابن حجر العسقلاني، ولعل ذلك لجملة من الأسباب توفرت فيهم واستحقوا بموجبها أن يكون فيهم من يقارب في الفضل الصحابة السابقين، ويفاضل من تحققت فيهم مجرد الصحبة كما سيأتي في المبحث الموالي.

---

(1) عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري، إقامة البرهان على نزول عيسى في آخر الزمان، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ص 65 -66

المبحث الثاني
أسباب ومظاهر خيرية آخر الأمة وتجلياتها في واقع المسلمين اليوم

لم يستحق الآخِرون من الأمة المحمدية أن يكون فيهم من يقارب الصحابة الكرام في الفضل، مع إمكانية أن يكون فيهم أيضا من يساوي أو يتفوق على بعض آحاد الصحابة الذين لم تتحقق فيهم إلا الصحبة العامة، لم يستحقوا ذلك إلا لأسباب نوَّهت به الأحاديث التي جاءت في خيرية آخر الأمة الإسلامية، وكما كان لهذه الخيرية أسباب فقد كانت لها أيضا جملة من المظاهر التي تؤكد حقيقة هذا الخير الذي بُشِّروا به، ولما كانت هذه الأسباب والمظاهر هي معايير تقييم واقع المسلمين اليوم في ظل هذه الموازنة التفاضلية بين أول الأمة وآخرها، فإن المبحث الثاني من هذه الدراسة سيعالج المطالب التالية: أسباب خيرية آخر الأمة، مظاهر خيرية آخر الأمة، أحاديث خيرية آخر الأمة وواقع المسلمين اليوم.

المطلب الأول: أسباب خيرية آخر الأمة

ذكرت الأحاديث النبوية ثلاثة أسباب يستحق بموجبها الآخِرون من هذه الأمة تلك الخيرية التي بشرهم بها النبي الكريم عليه السلام، وهي: الإيمان بالنبي ﷺ غيبا، الأخوة للنبي ﷺ، الغربة في الدين:

1) الإيمان بالنبي ﷺ غيبا

ورد في السنة النبوية أكثر من حديث للنبي ﷺ يمتدح فيه من آمن به من أمته ولم يره ، وبعضه صريح في بيان أن سبب هذه الخيرية هو إيمانهم به ﷺ غيبا:

الحديث الأول: وهو قول النبي ﷺ: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني ...»[1].

الحديث الثاني : وهو قول النبي ﷺ لأبي عبيدة بن الجراح لما سأله: يا رسول الله هل أحد خيرٌ منا، أسلمنا معك وجاهدنا معك؟، قال: «نعم، قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني»[2].

الحديث الثالث: روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «**وددت أني لقيتُ إخواني**»، فقال أصحاب النبي ﷺ: أو ليس نحن إخوانك؟، قال: «**أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني**»[3].

فهذه الأحاديث تعظم إيمان من لم ير النبي ﷺ عيانا على إيمان من شاهده ورآه، وذلك ((لأنه آمن بغير صرف، بخلاف من رآه، فإنه قد شاهد من المعجزات ما جعل الأمر عنده كالعيان))[4]، وقد جاء في السنة النبوية ما يؤكد أن هذا هو السر في التفضيل بهذا السبب، وذلك في حديثٍ رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

(3) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم 12579، ج 20 ص 38/ أبو يعلى في مسنده، رقم 3390، ج 6 ص 118/ سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، رقم 5494، ت: طارق بن عوض الله وعبد المحسن بن إبراهيم ، دار الحرمين، القاهرة، 1415ه - 1995م ، ج 5 ص 341.

حكمه: الحديث من رواية جسر بن فرقد عند أحمد، ومن رواية محتسب بن عبد الرحمان عند أبي يعلى الطبراني، وكلاهما ضعيف، فإسناده إذن ضعيف من الطريقين، إلا أنه له شاهد صحيح من رواية أبي هريرة أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم 249، ولهذا حسنه لغيره شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لمسند أحمد.

(4) حاشية السندي على مسند الإمام أحمد، ج 7 ص 20.

عنهما[1] أن النبي ﷺ قال: «أي الخلق أعجب إليكم إيمانا؟»، قالوا: الملائكة، قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ﷻ؟!»، قالوا: فالنبيون، قال: «فما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟!»، قالوا: فنحن، قال: «ومالكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟!، ألا إن أعجب الخلق إلي إيمانا قوم يأتون من بعدكم، يجدون صحفا فيها كُتَب يؤمنون بما فيها»[2].

---

(1) ورد الحديث عن عمر بن الخطاب بلفظ: «أتدرون أي أهل الإيمان أفضل إيمانا»، ولو صح بهذا اللفظ لناسب الاستشهاد به في مطلب «الأفضلية على أول الأمة»، ولكن ضعفه غير واحد لأن في سنده: محمد بن أبي حميد، وهو ضعيف، والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه، ذكر فضائل الأمة بعد الصحابة والتابعين، ج 4 ص 85 – 86، وقد تعقبه الذهبي بقوله: ((بل محمد ضعفوه))، ومثله قال ابن حجر في الأمالي المطلقة، ص 40: ((وغلط لأجل محمد بن أبي حميد)) ، وضعفه في الفتح، ج 2 ص 1652، وقال: ((إسناده ضعيف، فلا حجة فيه))، وقال الألباني: ((ضعيف جدا))، انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء على الأمة (رقم 648) ، مكتبة المعارف، الرياض، ج 2 ص 103.

(2) أخرجه أبو بكر البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، جماع أبواب إخبار النبي ﷺ بالكوائن بعده ...، باب ما جاء في إخباره بقوم لم يروه فيؤمنون به فكان كما أخبر، ت: عبد المعطي قلعجي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1408ه – 1988م، ج 6 ص 538 / والخطيب البغدادي، شرف أصحاب الحديث، وصف الرسول ﷺ إيمان أصحاب الحديث، رقم 61، ت: محمد سعيد خطيب أوغلي، كلية الإلهيات بجامعة أنقرة، 1389ه – 1969م، ص 32 – 33.

حكمه: قال ابن حجر في الأمالي المطلقة، ص 39: ((هذا حديث غريب))، ثم قال: ((لكنه يعتضد بالذي قبله))، ويقصد بالذي قبله حديث عمر السابق، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (رقم 647)، ج 2 ص 102، وذكر أن ابن كثير جزم بنسبة الحديث للنبي ﷺ، وقال: ((لعله وقف على طريق أو طرق أخرى يتقوى بها))، ثم لما وقف على طريق أنس بن مالك التي أخرجها البزار عاد

وقد أثِر عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﵁ قولٌ في تعظيم إيمان من آمن بالرسول ﷺ ولم يره، حيث روي أنه: ذكروا عنده أصحاب محمد ﷺ وإيمانهم، فقال ((إن أمر محمد كان بيِّنا لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة 1 - 3][(1)]، وذلك أن كل من جاء بعد العهد النبوي لم يشاهدوا من الآيات التي أيد بها النبي ﷺ سوى معجزة القرآن الخالدة، وفاتهم مشاهدة كثير من المعجزات الحسية التي أجراها الله على يد نبيه الكريم وشاهدها الصحابة الكرام.

ولكن هذه الخيرية للآخرين مع ثبوتها ووضوح سرها إلا أنها تظل خيرية نسبية أو جزئية[(2)]، أي: تفضيل الآخرين على الأولين من حيث هذه الجزئية فحسب، وإلا فإن للأولين فضيلة الصحبة التي لا حظ للآخرين فيها، يقول الإمام الشوكاني: ((والذي

=وذكر الحديث في السلسلة الصحيحة باعتبار ثلاث طرق يقوي بعضها بعضها: رواية عبد الله بن عمرو، رواية أنس لأن رجالها ثقات، عدا سعيد بن بشير مختلف عليه، وثقه البعض وضعفه البعض، ومن الموثقين البخاري ودحيم بن اليتيم والذهبي، وطريق مرسلة أخرجها البيهقي في دلائل النبوة، رجالها ثقات إلا أحمد بن عبد الجبار العطاردي مختلف فيه، ولهذا قال فيه الذهبي في الميزان: حسن الحديث، انظر: السلسلة الصحيحة (رقم 3215)، ج 7 ص 654 - 657.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، سورة البقرة، ج 2 ص 260 / وابن أبي حاتم الرازي، تفسير القرآن العظيم مسندا عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، ت: أسعد محمد الطيب، ط1، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة والرياض، رقم 66، 1417هـ - 1997م ،ج1 ص 36 - 37.

حكمه: قال الحاكم: ((هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه))، ووافقه الذهبي، وصحح إسناده ابن حجر وجعله شاهد قوي لحديث عبد الله بن عمرو السابق، انظر: الأمالي المطلقة، ص 39.

(2) حاشية السندي على مسند الإمام أحمد، ج 10 ص 55.

يستفاد من مجموع الأحاديث أن للصحابة مزية لا يشاركهم فيها من بعدهم، وهي صحبته ﷺ ومشاهدته والجهاد بين يديه وإنفاذ أوامره ونواهيه، ولمن بعدهم مزية لا يشاركهم الصحابة، وهي إيمانهم بالغيب في زمان لا يرون فيه الذات الشريفة التي جمعت من المحاسن ما يقوم بزمام كل مشاهدٍ إلى الإيمان إلا من حقت عليه الشقاوة))(1).

حاصل الكلام: أن الصحابة فضلوا على الآخرين بالصحبة والآخرين فضلوا على الصحابة بالإيمان بالغيب، فهما من حيث هذه الموازنة قد يتساوون في الفضل بتعويض الآخرين ما فاتهم من صحبة ومشاهدة للنبي ﷺ بخصلة الإيمان به غيبا، وتحفظ للصحابة السابقين مزايا أخرى تحول دون أن يبلغ مرتبتهم كل من يأتي بعدهم، مع إمكانية أن يبلغ الآخرين مرتبة بعض آحاد الصحابة الذين لم يكن لهم إلا حظ الرؤية والمشاهدة للنبي ﷺ.

2) الأخوة للنبي ﷺ

نعت النبي ﷺ من آمن به ولم يره ممن جاء بعده بأنهم إخوان له كما ورد في حديث أنس السابق، وفي حديث آخر رواه أبو هريرة رضي الله عنه، وفيه: أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة، فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أنا قد رأينا إخواننا»، قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟، قال: «أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد»، فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟، فقال: «أرأيت لو أن رجلا له خيل غرٌّ مُحَجَّلَةٌ بين ظهري خيلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ ألا يعرف خيله؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فإنهم يأتون غرا محجَّلين من الوضوء،

(1) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، ص 1736.

وأنا فَرَطُهم على الحوض، ألا ليُذادنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أناديهم ألا هلم، فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك فأقول: سحقا سحقا»[1].

ومعنى وصفهم بالإخوان إثبات أخوة الإسلام لهم من جهة، وتشريفهم وبيان فضلهم من جهة أخرى[2]، وكأن النبي ﷺ أثبت للآخرين ميزة الأخوة له في مقابلة صحبة الأولين له، وإن كان لا يلزم من ذلك أي أفضلية للآخرين عن الأولين، لأن الأخوة حاصلة أيضا للصحابة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات 10]، فهم إخوة وصحابة، ومن بعدهم إخوة فحسب[3]، وقيل: بل إن الصحبة فيها قدر زائد على مجرد الأخوة لما يوجد غالبا بين الإخوة من العداوة بخلاف الصحبة[4]، وعليه فالصحبة أفضل من الأخوة، وتظل مرتبتها أعلى مقاما.

وتشريف النبي ﷺ لهؤلاء الآخرين بوصف الأخوة له وتبشيرهم بأنه فرطهم على الحوض يوم القيامة وبأنه سيعرفهم بالنور الذي سيضيئ وجوههم وأيديهم وأرجلهم من أثر الوضوء، كل هذا ليس فقط لإيمانهم به غيبا- مع شرف ذلك كما سبق بيانه -،

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم 249، ص 126/ أحمد بن شعيب النسائي، المجتبى من السنن المشهور بسنن النسائي، كتاب الطهارة، باب حلية الوضوء، رقم 150، ت: فريق بيت الأفكار الدولية، بيت الأفكار الدولية، عمان والرياض، ص 33/ سنن ابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر الحوض، رقم 4306، ص 464 / مالك بن أنس، الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي، كتاب الصلاة، باب جامع الوضوء، رقم 64، ط2، ت: بشار عود معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1417هـ- 1997م، ج 1 ص 65 - 66.

(2) حاشية السندي على مسند الإمام أحمد، ج 6 ص 297.

(3) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ص 265 -266 / مجموع رسائل الحافظ العلائي، ص 276 -277.

(4) مجموع رسائل الحافظ العلائي، ص 276 - 277.

وإنما أيضا لتمسكهم بدينه ومحافظتهم على سنته كما يفهم من خاتمة الحديث، فشأنهم في ذلك شأن الأولين، فكل من بدّل بعد النبي ﷺ وأحدث في دينه ما ليس منه واعتدى وجار على حدود الله فقد يكون ممن يصد عن الحوض يوم القيامة[1]، وعليه فإن استحقاق هؤلاء الآخرين لأي خيرية بسبب هذه الأخوة هو في تحقيق حقيقتها المتضمنة معاني إقامة دين الله والمحافظة على سنة نبيه ﷺ.

3) الغربة في الدين

من الأسباب التي يستحق بموجبها الآخِرون من أمة الإجابة الخيريةَ والفضلَ هو ما مر معناه في حديث الغرباء وحديث مضاعفة أجر العاملين في أيام الصبر، وهو أثر الغربة في الدين في تزكية الأعمال وتكريم وتنعيم أصحابها، وقد ورد في حديث الغربة المتواتر زيادات في بعض رواياته تشرح وتُبيِّن من هم الغرباء الذين يمدحهم النبي ﷺ في هذا الحديث، إلا أن كثيرا منها لا يصح، والأصل في الدراسات الموضوعية البناء فقط على الأحاديث المقبولة، والزيادات المقبولة في هذا الحديث هي: «الذين يصلحون إذا فسد الناس»[2] و«أناس صالحون في أناس سوء، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم»[1].

(1) اختلف الشراح في تحديد أصناف الذين يصدون من الأمة المحمدية عن الحوض القيامة، فذكر في ذلك: المنافقون، من كان في زمن الرسول ثم ارتد، أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد، أصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام، فكل هؤلاء لا يمتنع أن يكون لهم غرة وتحجيل، فيناديهم النبي ﷺ لحوضه، فتصدهم الملائكة عن الحوض لما بدلوا فيه من دين الله، انظر: المنهاج، ص 265.

هذه الأخوة هو في تحقيق حقيقتها المتضمنة معاني إقامة دين الله والمحافظة على سنة نبيه ﷺ.

(2) وردت في روايات: عبد الله بن مسعود، أبي هريرة، جابر بن عبد الله، عبد الرحمان بن سنة، سعد بن أبي وقاص، وفي مرسل يحيى بن سعيد، وقد تفاوت الحكم على أسانيد هذه الزيادة بين الصحة والضعف القابل للانجبار والضعف الشديد، وعليه فالعبارة مستفيضة صحيحة، انظر تخريج هذه

ويستفاد من هاتين الزيادتين مفهوم الغربة الممدوحة في الحديث وصفات أهلها، يقول ابن قيم الجوزية: ((ومن صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطهم النبي ﷺ: التمسك بالسنة إذا رغب الناس عنها، وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد، وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الانتساب إلى أحد غير الله، لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقا))(2)، وهؤلاء هم الذين بشر النبي ﷺ أن أجر العامل منهم يوازي أجر خمسين عامل من صحابته.

وقد صوَّر النبي ﷺ بأسلوب بليغ - وهو ملك البلاغة والبيان - قلة هؤلاء المقيمين لدين الله المحققين للاقتداء به في وسط كثرةٍ مضيعين لدين الله مستنكفين عن منهج نبيه، صّوره كما جاء في رواية عبد الله بن عمر لحديث الغرباء بقوله: «إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، وهو يأرِز بين المسجدين كما تأرز الحية في

=الروايات ودراستها عند: سليم بن عيد الهلالي، الغربة والغرباء، ط 1، دار الهجرة، الدمام، 1409هـ 1989م، صفحات: 13 - 20 – 22- 24و25 - 30 - 33 و34.

(1) وردت في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم 6650، ج 11 ص 231 ورقم 7072، ج 11ص 643، وفي سنده عبد الله بن لهيعة، وهو سيء الحفظ، لكن رواه عنه عند غير أحمد: عبد الله بن المبارك في الزهد (رقم 775)، وعبد الله بن يزيد المقريء عند البيهقي في الزهد الكبير (رقم 203)، وهما صحيحا السماع منه، ولهذا حسَّنه لغيره الأرنؤوط في تحقيقه للمسند، وصححه الهِلالي بمجموع طرقه في الغربة والغرباء، ص 16 - 17.

(2) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ت: محمد المعتصم بالله البغدادي، ط 7، دار الكتاب العربي، بيروت، 1423هـ - 2003م، ج 3 ص 187 - 188.

جحرها»[1]، ومعنى هذا التشبيه النبوي «يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها»: يجتمع وينضم بين مسجد مكة والمدينة كما تنكمش الحية في جحرها إذا راعها شيء، أي: كان الإسلام هكذا في أول عهده وسيعود بهذه الصفة في آخر الأيام[2].

وتوجيه اجتماع الإسلام بين الحرمين الشريفين ، ثم استقراره وثبوته بالمدينة كما في الحديث المتفق عليه: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»[3] هو كما ذكر الشراح: أن الإسلام بعد ظهوره في مكة إنما انتشر في المدينة، وأن النفوس المؤمنة من العهد النبوي إلى هذه الأيام تنساق إلى المدينة حبا وشوقا للنبي ﷺ، فإن كان فات الآخرون رؤيته ﷺ والتعلم منه، وفاتهم التعلم من صحابته ومن أخذ عنهم من أهل القرون الخيرة فإنه لا يفوتهم زيارة قبره والصلاة في مسجده والتبرك بمشاهدة آثاره[4]، ومن كان هذا شأنه فهو مؤمن حقا، وفي هذا يقول القاضي عياض: ((فلا يأتيها إلا مؤمن، ولا يحمل أحد على قصدها إلا إيمانه وصحة نفسه))[5].

ومما ينبغي التنبيه إليه في تجلية معنى الحديث أن غربة الإسلام في آخر الزمان لا يعني بالضرورة قلة عدد المسلمين، فالواقع اليوم يقول أن عددهم كثير جدا،

---

(1) أخرج هذه الرواية الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، رقم 146، ص 83.

(2) موسى شاهين لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم، ط 1، دار الشروق، القاهرة، 1423ه – 2002م، ج 1 ص 467.

(3) صحيح البخاري، كتاب، باب الإيمان يأرز إلى المدينة، رقم 1876، ص / صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، رقم 147، ص 83.

(4) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج 1 ص 457 / فتح الباري، ج 1 ص 1047.

(5) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج 1 ص 457.

والداخلون إليه يزدادون يوما بعد يوم، وإنما هي غربته في نفوس الناس وإن كثر المنتسبين إليه[1]، وذلك لقلة المحققين له إخلاصا وصوابا، والله أعلم.

إن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة في الآخرين من الأمة الإسلامية هي التي تفسر لنا هذه الخيرية التي امتدحهم بها الرسول الكريم، حيث دلَّ إيمانهم بالنبي الذي لم يروه على تحقق فيهم مقام الإيمان بالغيب الذي هو من المقامات العالية التي أثبتها الله للمؤمنين الصادقين في القرآن الكريم، ((ودل بإثبات الأخوة لهؤلاء على علو مرتبتهم، وأنهم حازوا فضيلة الآخرية كما حاز ﷺ وأصحابه فضيلة الأولية، وهم الغرباء المشار إليهم بقوله: بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا فطوبى للغرباء))[2]، ثم إن هذه الأسباب ـ الإيمان بالنبي غيبا، الأخوة، الغربة ـ التي منح الآخرون بتحققها فيهم هذه الخيرية لابد وأن يكون لها ما يؤكدها من مظاهر تبين ذلك القرب من الأولين كما سيأتي.

المطلب الثاني: مظاهر خيرية آخر الأمة

من العلامات الخاصة التي يعرف بها الممدوحون بالخيرية في آخر هذه الأمة وصفان أثبتهما لهم النبي ﷺ في أحاديثه الشريفة المتصلة بهذا الباب، وهما: شدة حب النبي ﷺ، وتحقيق الاقتداء بالمنهج النبوي:

1) شدة حب النبي ﷺ

ذكر النبي ﷺ هذه العلامة في قوله: «إن من أشد أمتي لي حبا ناسا يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله»[3]، حيث بين النبي في هذا الحديث أن في أمته ممن

(1) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج 1 ص 457.

(2) محمد بن عبد الباقي الزرقاني، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، ت: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1424 هـ - 2003م، ج 1 ص 149.

(3) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب فيمن يود رؤية النبي ﷺ، رقم 2832، ص 1138/ مسند الإمام أحمد، رقم 9399، ج 15 ص 233.

يوجدون بعد وفاته من تحترق قلوبهم شوقا لرؤية النبي ﷺ من شدة المحبة له، وتستعد نفوسهم لبذل الأهل والمال في سبيل تحصيل تلك الرؤية، وظاهر الكلام أن المفاضلة في قوله «إن من أشد أمتي» مطلقة، أي هذه حالهم بالمقارنة مع غيرهم في كل الأمة منذ البعثة النبوية، مع اشتراكهم مع غيرهم في ذلك لأن «من» في العبارة تبعيضية، وقال علي القاري في شرح هذه العبارة: ((أي: بالنسبة إلى غيرهم في زمانهم))[1]، بمعنى: أن المفاضلة هي بين هؤلاء الآخرين الموصوفين بشدة الحب للنبي ﷺ وبين غيرهم من أهل زمانهم وفترتهم.

وأيا كان الأمر فإنهم حتما لا يتفردون بهذه الخصلة الإيمانية عن الصحابة الذين لا يشك مؤمن في شدة حبهم للنبي ﷺ، وقد فدوه فعلا بالنفس والمال والأهل والبنين، وتحقيق جميع المسلمين لأدنى مراتبها سمةٌ على كمال الإيمان الواجب، والنبي ﷺ يقول في الحديث الذي يرويه عنه أنس رضي الله عنه: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[2]، فهذه المرتبة من واجبات الإيمان التي إذا أخل بها العبد لم يتم إيمانه بدونها، ولم يكن ممن يدخل الجنة بلا عقاب لتركه واجب من الواجبات.

وفي هذا السياق يقول ابن تيمية: ((والمقصود هنا أن كل ما نفاه الله ورسوله من مسمى أسماء الأمور الواجبة كاسم الإيمان، والإسلام، والدين، والصلاة، والصيام، والطهارة، والحج وغير ذلك فإنما يكون لترك واجب من ذلك المسمى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي

(1) علي بن سلطان محمد القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ت: الشيخ جمال عيتاني، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422ه – 2001م، ج 11 ص 415.

(2) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان، رقم 15، ص 26 / صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، رقم 44، ص 50.

﴿أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]، فلما نفى الإيمان حتى توجد هذه الغاية دل على أن هذه الغاية فرض على الناس، فمن تركها كان من أهل الوعيد، لم يكن قد أتى بالإيمان الواجب الذي وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب، فإن الله إنما وعد بذلك من فعل ما أمر به، وأما من فعل بعض الواجبات وترك بعضها فهو معرض للوعيد))[1].

ولعل الممدوح في هذا الحديث ما هو أعلى من تقديم محبة النبي ﷺ في امتثال الواجبات وترك المحرمات، فالمؤمنون في هذه المحبة للنبي ﷺ ليسوا على مرتبة واحدة، يقول القرطبي: ((إن كل من صدق بالنبي ﷺ وآمن به إيمانا صحيحا لم يخلُ عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة للنبي ﷺ، غيرهم أنهم في ذلك متفاوتون، فمنهم من أخذ تلك الأرجحية بالحظ الأوفى ...، ومن المؤمنين من يكون مستغرقا بالشهوات محجوبا بالغفلات عن ذلك المعنى في أكثر أوقاته، فهذا بأخس الأحوال، لكنه إذا ذكر بالنبي ﷺ وبشيء من فضائله اهتاج لذكره، واشتاق لرؤيته، بحيث يؤثر رؤيته، بل رؤية قبره ومواضع آثاره على أهله وماله وولده والناس أجمعين، فيخطر له هذا ويجده وجدانا لا شك فيه، غير أنه سريع الزوال والذهاب لغلبة الشهوات وتوالي الغفلات))[2].

ومقام المدح والثناء في الحديث يقتضي القول أن الممدوحين هم من أهل المرتبة الأولى التي ذكرها القرطبي في كلامه، وهم الذين أخذوا من تلك المحبة الراجحة

(1) أحمد بن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمان بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1425هـ - 2004م، ج 7 ص 37.

(2) أبو العباس القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ت: محي الدين ديب متو وآخرون، ط 1، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، دمشق وبيروت، 1417هـ - 1996م، ج 1 ص 226 - 227.

بالحظ الأوفى، فهؤلاء لا يكتفون بتقديم محبة النبي ﷺ على دواعي الأنفس في باب فعل الواجبات وترك المحرمات، بل يرتقون لتقديمها في باب المستحبات الشرعية، يقول ابن رجب الحنبلي: ((... فإن بلغت المحبة إلى تقديم المندوبات على دواعي النفس كان ذلك علامة الإيمان وبلوغه إلى درجة المقربين المحبوبين المتقربين بالنوافل بعد الفرائض، وإن لم تبلغ هذه المحبة إلى الدرجة، فهي درجة المقتصدين أصحاب اليمين الذي كملت محبتهم ولم يزيدوا عليها))[1]، فالدرجة الأولى هي ما حققه الصحابة رضوان الله عليهم، وبشَّر النبي الكريم بأنه سيكون فيمن يأتي بعده من أمته من يماثلهم في شدة حبهم للنبي ﷺ، وإلا لم تكن هناك فائدة من تخصيصهم بهذا الثناء والمدح، والله أعلم.

2) تحقيق الاقتداء بالمنهج النبوي

من مظاهر الخيرية في آخر الأمة الإسلامية ما بشر به النبي الكريم من أن خلافة عادلة على نهج النبوة ستكون فيهم بعد حالة من الاستبداد السياسي، يقول النبي ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضّاً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة عى منهج النبوة»[2].

---

(1) ابن رجب الحنبلي، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ت: طارق بن عوض الله بن محمد، ط 1، دار ابن الجوزي، الرياض، 1417ه- 1996م، ج1 ص 44.

(2) مسند أحمد، رقم 18406، ج 30 ص 355 / أبو داود الطيالسي في مسنده، رقم 439 ، ج1 ص 349 - 350/ البيهقي في دلائل النبوة، ج 6 ص 491 / عبد الرحيم بن الحسين العراقي، محجة القرب إلى محبة العرب، ت: عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم آل حمد، ط 1، دار العاصمة، 1420هـ- 2000م، ج 1 ص 176 وغيرهم.

والظاهر من الحديث أن الخلافة المبشر بها ستكون في آخر هذه الأمة إن شاء الله تعالى، ومن المستبعد أن تكون قد تحققت بخلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الذي كان في عدله كالخلفاء الراشدين كما قد يفهم من تتمة رواية هذا الحديث، وفيها: ((قال حبيب[1]: فلما قام عمر بن عبد العزيز، وكان يزيد بن النعمان بن بشير في صحابته، فكتبتُ إليه بهذا الحديث أذكره ، فقلتُ له: إني أرجو أن يكون أمير المؤمنين - يعني عمر - بعد الملك العاض والجبرية، فأدخل كتابي على عمر بن عبد العزيز، فسُر به، وأعجبه))، وذلك لأن خلافة عمر بن عبد العزيز لم تكن بعد ملك عاض ولا ملك جبرية[2]، بل المسلمون اليوم هم من يعيشون تلك الحال من تسلط الحكام وجبروتهم، وتروم أنفسهم لاسترداد الحكم الراشد الذي يحفظ الحقوق ويصون الكرامة الإنسانية.

=**حكمه**: أخرجه العراقي بنفس إسناد الإمام أحمد [حدثنا سليمان بن داود الطيالسي، حدثنا داود بن إبراهيم الواسطي، حدثنا حبيب بن سالم عن النعمان بن بشير]، وقال: ((هذا حديث صحيح، وداود بن إبراهيم سكن البصرة، وثقه أبو داود الطيالسي وابن حبان، وباقي رجاله محتج بهم في الصحيح))، والمراد أنهم محتج بهم في صحيح مسلم، وإلا فإن البخاري قال في حبيب بن سالم: ((فيه نظر))، انظر: محمد بن إسماعيل البخاري، التاريخ الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 2 ص 318 ، وذكره ابن حبان في الثقات، انظر: محمد بن حبان البستي، كتاب الثقات، ط 1، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، 1398هـ ـ 1978م، ج 4 ص 142 -143، ولهذا قال الألباني: ((فحديثه حسن على أقل الأحوال إن شاء الله تعالى))، وهذا الحديث عنده في السلسلة الصحيحة (5)، انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ج 1 ص 35، وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند: ((إسناده حسن)).

(1) هو حبيب بن سالم، أحد رجال السند، ومولى الصحابي النعمان بن بشير رضي الله عنه، انظر الهامش السابق.

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ج 1 ص 35.

والحديث عن خلافة راشدة على منهج النبوة تبرز ما نحن بصدد بيانه بصورة واضحة، وهو حسن الاهتداء بسيرته والاقتداء بمنهجه في سياسة حياة المسلمين، وبناء خلافة راشدة على منهج النبوة بعد حكم جائر هو من التغيير الذي تجري عليه هذه السنة الإلهية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد11]، بمعنى أن هذا التغيير الإيجابي هو مكافأة ربانية للجماعة التي غيَّر أفرادها أنفسهم بتهذيبها وتزكيتها وتوجيهها بالدين والأخلاق، فتبشير النبي ﷺ آخر هذه الأمة بهذه الخلافة المسترشِدة بالمنهج النبوي يعكس صلاحا في أبناء هذه الأمة، ويعكس حرصا منهم على اتباع النبي ﷺ والاقتداء به.

وهذا الاقتداء بالنبي ﷺ هو سمة الخيرية في الآخرين ومظهر الامتثال لشرع الله وعلامة رضاه عنهم لأن الله تعالى يقول في القرآن الكريم على لسان نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران 31]، وبهذا تترابط مظاهر الخيرية في آخر هذه الأمة، فهذه الخيرية هي ثمرة تحقيق الاقتداء بالمنهج النبوي، وهذا الاقتداء والاتباع ما هو إلا ثمرة الحب الشديد للنبي ﷺ، وفي ضوء هذه المتتالية تفهم الأسباب التي من أجلها كتب الله لآخر هذ الأمة هذا الفضل الذي يقارب فضل الأولين حتى لا يكاد يتميز عنه.

المطلب الثالث: أحاديث خيرية آخر الأمة وواقع المسلمين اليوم

لا شك أن الناس يعيشون اليوم الأزمنة الأخيرة التي تجلَّت فيها الكثير من أشراط الساعة الصغرى، إلا أن مقابلة مضامين هذه الأحاديث الواردة في خيرية آخر الأمة مع واقع المسلمين اليوم يشكك الناس في انطباق هذه البشريات النبوية عليهم، وهم يرون تغلغل المعاصي والذنوب في أنفسهم وأهليهم وأبنائهم، ويرون انكسار جماعتهم وذهاب هيبتها وغياب هويتها خلف مراجع ومذاهب دخيلة على الإسلام، ويرون تكالب الأعداء عليهم من كل صوب وهوانهم على الناس، ويحس بعضهم في مجتمعاتهم المسلمة بتلك الغربة التي أخبرت السنة النبوية أن حال المسلمين ستؤول إليها كما كان حال الأولين.

والحقيقة أن هذه المظاهر السلبية التي أبتليت بها الأمة الإسلامية في هذه الأيام ما ينبغي أن تتمكن من النفوس فتحبطها وتجعل اليأس يدب في جماعتها، بل لابد أن تُستثمر هذه الأحاديث الشريفة في إصلاح أحوال الأمة باتخاذ أسباب التغيير للأفضل، وهي الأسباب التي ذكرها النبي ﷺ في ثنايا كلامه عن خيرية آخر الأمة حتى ينبه المسلمين إلى أن هذه الخيرية ليست هبة، وإنما هي جزاءٌ للعمل الصالح، هي جزاءٌ للإيمان بنبي الإسلام غيبا، وجزاء لتحقيق معاني الأخوة له، وجزاء للثبات في أيام الصبر والغربة، ويجمع هذا كله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد 7].

إن الاستثمار الصحيح لهذه الأحاديث يأتي في سياقين، أحدهما تأصيلي والآخر عملي:

الاستثمار التأصيلي: وسبيله الفهم السليم لهذه الأحاديث، وعدم ردها بدعوى أنها معارضة للأحاديث الواردة في فضل أول الأمة، فإذا كان الجمع بين هذه النصوص جميعها ممكنا، بحيث يحفظ للصحابة رضوان الله عليهم فضلهم المعروف في القرآن والسنة، ولا يحجر على غيرهم ممن يأتي بعدهم خيرية قريبة من ذلك، أو فضل موازي لفضل بعضهم ممن لم تثبت لهم إلا الصحبة العامة، فهذا التوجيه لا ينقص من قدر الأولين، ويضمن إعمال جميع النصوص النبوية، وهو المنهج الصحيح في حل تعارض الأحاديث النبوية أو مختلف الحديث كما سلف بيانه في موضع سابق من هذه الدراسة.

الاستثمار العملي: وسبيله اتخاذ الأسباب التي جاء ذكرها في ثنايا هذه الأحاديث الشريفة، فإذا تشَرَّب المسلمون اليوم هذه البشريات النبوية، وعلموا أن لهم فضلا عظيما بإيمانهم بالرسول غيبا، واستشعروا بأنهم إخوان له في مقابل صحبة الأولين له وجهادهم معه، وتيقنت أفئدتهم بوعود النبي الذي لا ينطق عن الهوى بأن لهم أجر خمسين من الصحابة إذا تمسكوا بدينهم وحافظوا على سنة نبيهم وصبروا على محن هذه الأيام التي تعج بالفتن، ولم يجعلوا غربتهم مصدر يأس وصنعوا منها أملا في نشر الخير كما فعل الأولون، فإنهم سيبذلون أسباب هذه الخيرية ويجتهدون في طلبها حتى يحققوا

وصف الله في هذه الأمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران 10]، فهذه الخيرية التي امتدح بها القرآن الكريم الأمة المحمدية، وأخبر النبي أن للآخرين من أمته حظ وفير منها يداني حظ الصحابة، هذه الخيرية مرتبةٌ جليلة، والوصول إليها يتطلب تربية نفسية وتعهدا روحيا على الطاعة والامتثال ومجانبة المعصية، ويتطلب صبرا وثباتا على نشر الخير ومدافعة الشر.

ثم إن الغرض من دراسة هذه الأحاديث ليس المقارنة بين الأولين والآخرين لمجرد المقارنة وإثبات أن فئة أفضل من الأخرى، أو فئة توازي في الفضل الأخرى، وإلا لم يكن لهذه الدراسة أي ثمرة تُرجا، وإنما غرضها الدفع بالمسلمين نحو مستقبل إيماني وعملي أفضل بمنحهم عزيمة على الثبات على الحق ومدافعة الباطل مهما استفحل في الأمة، وبمنحهم تصور عن أسباب تحصيل هذه الخيرية ومظاهرها حتى يكون لهم منها نصيب، وبإعطائهم شحنة إيمانية تبثها بشريات هذه الأحاديث التي تؤكد أن في الآخرين من الخير ما يجعلهم ينافسون الأولين في الفضل، فلا تيأس نفوسهم من بلوغ العلا كما بلغه سلفهم، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة 105].

خاتمة البحث

حاولت هذه الدراسة فقه الأحاديث النبوية الواردة في خيرية آخر الأمة وفق منهجية دراسات الحديث الموضوعي التي تهدف إلى معرفة الموقف النبوي من موضوع ما عن طريق جمع ما جاء فيه من أحاديث مقبولة، ثم دراستها والربط بينها بمراعاة قواعد الفهم السليم للسنة النبوية، والقائمة على: فهم الموضوع النبوي الذي تحمله هذه الأحاديث في ضوء هدايات القرآن الكريم لخصوصية العلاقة بين القرآن والسنة، ومعالجة هذا الموضوع النبوي في ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية، مع العمل على معالجة مشكل الحديث أو مختلفه إن وجد في جملة الأحاديث التي تشكل محور الدراسة الموضوعية.

وقد خرجت هذه الدراسة بالنتائج التالية:

1) وجود جملة من الأحاديث النبوية المقبولة التي يؤكد فيها النبي ﷺ على خيرية آخر هذه الأمة، والتي يمكن البناء عليها في تجلية الموقف النبوي من هذا الموضوع.

2) أن أحاديث خيرية آخر الأمة احتملت ظواهرها معاني متنوعة ما بين تسويتهم بأول الأمة، أو تفضيلهم عليهم أو التردد في أيهما أفضل.

3) أن الدراسة العلمية لهذه الأحاديث باتباع قواعد فهم السنة النبوية وصلت إلى أن مفهوم الخيرية التي جاءت بها هذه الأحاديث الشريفة لا تتعارض في مضمونها مع الفضل الذي خص بها الصحابة السابقون، فهي تمنح الآخرين لجملة من الأسباب خيريةً قريبةً جدا من خيرية الأولين، مع إمكانية أن يفاضلوا بعض آحاد الصحابة الذي لم تثبت لهم إلا الصحبة المجردة.

4) أن لهذه الخيرية التي أُمتدِح بها الآخرون أسباباً ذكرها النبي ﷺ في ثنايا كلامه عن فضل آخر الأمة، وفي ضوئها فقط يفهم لما بلغ هؤلاء الآخرين هذه المرتبة القريبة من مرتبة الصحابة الذين كان لهم شرف رؤية النبي ﷺ، وزادوا على ذلك أن آمنوا به في زمن شدةٍ وقلة بين الناس، ونصروه، وعزروه، وهاجروا معه، وجاهدوا بين يديه بالنفس والمال، وتتمثل هذه الأسباب التي تقربهم من منزلة الصحابة في: إيمانهم به ﷺ على الرغم أنه لم يروه أبدا محققين بذلك فضل ومقام الإيمان بالغيب، تحقيق معاني الأخوة له، بالإضافة إلى الوصف المشترك بينهما، وهو الغربة في الدين.

5) أن لهذه الخيرية مظاهرَ وعلامات تؤكد حقيقة وجود الخير فيهم، فشدة حب النبي ﷺ وافتداء رؤيته بالنفس والمال والأهل والولد، وتطبيق منهجه والاقتداء بسيرته هو المسلك الذي كان عليه الصحابة الكرام، وهو مسلك الأخيار في كل الأزمان، لأنه هو السبيل إلى الوصول إلى مرضاة الله ومحبته مصداقا لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران 31].

6) أن الآخرين من الأمة الإسلامية بإمكانهم تحصيل هذه الخيرية والفوز بفضلها في أي زمن بتحصيل أسبابها والتحلي بمظاهرها التي ذكرتها الأحاديث النبوية المتصلة بهذه الدراسة.

7) أن الغرض من دراسة هذا الموضوع ليس المقارنة بين الأولين والآخرين، وإنما الدفع بالمسلمين في هذه الفترة الصعبة إلى تجاوز اليأس، والثقة بأنهم أهل للخير والريادة بفضل الانتساب إلى الأمة المحمدية المباركة التي جعل فضلها في إيمانها بالله وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، وفي صبرها في أداء هذه الرسالة اتباعا لنبيها واقتداء بسيرة أصحابه الكرام.

والحمد لله رب العالمين